المحاضرة الثالثة

"وتكفل الله تعالى بحفظ دينه، لبقاء الإسلام حتى تقوم الساعة، فقال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر/٩]، والذكر يشمل القرآن والسنة، فحفظ الله كتابه، وسخر العلماء لحفظ سنته في الصحاح والسنن والمسانيد والمستخرجات والمستدركات وغيرها.

ولكن الكفار والمشركين والمنافقين وقفوا في وجه الإسلام، وصوّبوا سهامهم لمصادره، وشمروا سواعدهم للطعن به بدءاً من كتابه المقدس، ورسوله المعظم، وسنته الشريفة، منذ أول البعثة، وطوال التاريخ، وحتى اليوم، وإلى أن تقوم الساعة، وهذا يمثل الصراع الأبدي والدائم بين الخير والشر والإيمان والكفر، والحق والباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولم تسلم السنة النبوية من ذلك، فاتجه إليها الأعداء، والمنافقون، والجاهلون، والحاقدون، ونالوا منها بالطعن، والتشكيك، بل والإنكار والجحود، وكانت أحد الحصون التي توجه إليها أعداء الله، وخاصة عندما يئسوا من النيل والتحريف والتبديل لكتاب الله تعالى، فاتجهوا إلى السنة ليمحوا أثرها ووجودها وحجيتها، ليبقى القرآن مجملاً وعاماً ومبهماً لعلّهم يعبثوا به، فيضيع الإسلام، وتنقرض مصادره وينابيعه، وكان الله تعالى لهم بالمرصاد ليردّ كيدهم، وسخّر العلماء لحفظ السنة رواية ودراية، لتبقى شامخة كالجبال، وتبقى مصدراً عذباً فياضاً طاهراً سلسبيلاً تروي المسلمين، وتمدهم بالبيان الحقيقي الصحيح لتطبيق الإسلام وفهم القرآن".[١]

حجية السنة:

اتفق العلماء على أن السنة الصحيحة الثابتة التي صدرت عن رسول الله ﷺ بقصد التشريع والاقتداء – حجة على المسلمين، ومصدر تشريعي لهم، متى ثبتت بسند صحيح، إما بطريق القطع، أو غلبة الظن.

واستدلوا على ذلك بأدلة جازمة قطعية كثيرة واضحة بيّنة لا تدخل تحت الحصر، وصار عندهم يقين جازم بأنه لا فرق بين حكم ثبت بالكتاب الكريم وحكم ثبت بالسنة النبوية، وهذه الأدلة من القرآن الكريم، وإجماع الصحابة، والمعقول، ويجمعها ثبوت العصمة للنبي ﷺ

---

(١)الجهود المبذولة في حجية السنة في القرن الرابع عشر الهجري، (د.محمد الزحيلي

المصطفى، والمرسل، والمبلِّغ، والمبيِّن عن ربه سبحانه وتعالى[1]، فمن ذلك:

أولاً: حجية السنة من القرآن الكريم:

استدل العلماء على حجية السنة بنصوص كثيرة من القرآن الكريم، وذلك من عدة وجوه، أهمها ما يلي:

١- أحال القرآن الكريم إلى السنة بعبارة صريحة، حيث طلب الله تعالى من رسوله أن يبيّن للناس ما أنزل الله إليهم من أحكام القرآن الكريم، فقال عز وجل: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [النحل/ ٤٤]، فأصبح بيان رسول الله ﷺ حجة بتكليف الله تعالى، وتفويض منه.

٢- أمر الله تعالى بطاعة رسوله، والطاعة تفيد الالتزام بأمر المطاع وتنفيذ طلباته[2]، قال الله تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الرسول، لعلكم ترحمون ﴾ [النور/ ٥٦]، فأصبح ما يصدر عن رسول الله ﷺ واجب التطبيق.

٣- ربط الله تعالى محبته باتباع رسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر ذنوبكم ﴾ [آل عمران/ ٣١].

قال الآمدي –رحمه الله تعالى-: " ومحبة الله واجبة، والآية دلت على أن متابعة النبي عليه الصلاة والسلام لازمة لمحبة الله الواجبة " [3]، فتجب المتابعة على أمر مشروع من الله سبحانه وتعالى ويصبح حجة لازمة.

٤- قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسوله في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم ﴾ [النساء/ ٥٩]، وقال عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ [الأنفال/ ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ [آل عمران/ ٣٢]، وجعل الله تعالى طاعة الرسول طاعة له، فقال تعالى: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء/ ٨٠].

فهذه الآيات الكريمة – وغيرها – تدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى يوجب اتباع رسوله

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير ١٦٧/٢.

(٢) الرسالة، للإمام الشافعي ص٣٣.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام، له، ١٦١/١.

فيما شرع، وأن الالتزام بطاعة الرسول كالالتزام بطاعة الله، وأن تنفيذ أقوال الرسول وأوامره كتنفيذ أقوال الله وأوامره، والانتهاء عما نهى عنه، وأن الآية الثانية هددت ونهت وحذرت من التولي عن طاعته أو معصيته.[1]

٥- أمر الله تعالى برد الحكم إلى الله والرسول عند التنازع والاختلاف، فقال تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [النساء/ ٥٩]، وهذا دليل على وجوب الرجوع إلى حكم الله تعالى الوارد في القرآن الكريم، وإلى حكم الله تعالى الثابت في السنة الشريفة، فهذا دليل قطعي على حجيتها على المسلمين للالتزام بها.[2]

٦- وصف القرآن الكريم رسول الله ﷺ بصفات المشرع، فقال تعالى عن رسوله: ﴿يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف/ ١٥٧]، فهذه الآية صريحة الدلالة في أن **أوامر رسول الله ونواهيه شرع للمسلم،** بل وصفه الله تعالى **بالعصمة في التشريع،** أي بعدم الخطأ فيما يقوله من الأحكام، فقال تعالى: ﴿ وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [النجم/ ٣-٤].

٧- نبّه القرآن الكريم إلى مكانة الرسول التشريعية، وحذر من مخالفة أمره، ثم هدّد بالفتنة والعذاب لمن يخالف أمره، قال تعالى: ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً، **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً،** فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [النور/ ٦٣]، وهذا يدل على وجوب اتباعه والاقتداء به والالتزام بما يصدر عنه.[3]

٨- أمر القرآن الكريم الأمة بالأخذ بما جاء به رسول الله ﷺ والنهي عما نهاهم عنه، فقال تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر/ ٧]، وهذا نص صريح بحجية أوامره ونواهيه الواردة في السنة الشريفة.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم الأندلسي ١/٨٧.

(٢) الرسالة ص٧٩، الإحكام، لابن حزم ١/٨٨، ٨٧.

(٣) الإحكام للآمدي ١/١٦١.

٩- نص القرآن الكريم أن الله تعالى أعطى نبيه محمداً ﷺ الكتاب والحكمة في آيات كثيرة[١]، فقال تعالى: ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [آل عمران/ ١٦٤]، وقال الله تعالى: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [الجمعة/ ٢].

قال العلماء: **الحكمة: هي السنة**[٢]، مما يدل على أن الله تعالى أوحاها إليه، وأنزل معناها عليه، وطلب منه بيانها للناس، وتلاوتها عليهم، وتعليمها لهم ليعملوا بها ويسيروا على هديها، ويلتزموا بها كالقرآن الكريم.

١٠- نص القرآن الكريم على وجوب الرضا بقضاء رسول الله ﷺ وأن حكمه ملزم للمسلمين حتى في أمورهم الخاصة، وليس لهم خيار أمامه، فقال تعالى: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب/ ٣٦]، وكان للآية سبب خاص فالتزم به الصحابة رضوان الله عليهم، وتكرر الأمر في حياته ﷺ، ووقف الصحابة عند قضائه دون أن يحيدوا عليه قيد أنملة[٣]، مما يؤكد دلالة الآية، ووجوب العمل بها والالتزام فيها، ثم تأكد ذلك بما يلي.

١١- نفى القرآن الكريم الإيمان عمن يرفض المثول لقضاء رسول الله ﷺ، أو يسخط عليه، ولا يستسلم له، أو لا يقبله، فقال تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون، حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلموا تسليماً ﴾ [النساء/ ٦٥]، ووصم الله تعالى من يصد ويعرض عن الرسول ﷺ أنه منافق[٤]، فقال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ [النساء/ ٦١].

١٢- بين القرآن الكريم أن من صفات الرسل عامة وجوب طاعتهم من الأمة التي

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الرسالة ص٧٦ للإمام الشافعي رحمه الله تعالى الذي بيّن مكانة السنة وحجيتها، وفند شبه المنحرفين والمتشككين فيها بأسلوب رائع بديع لم يسبق إليه حتى سمي بناصر السنة.

(٢) الرسالة ص٣٢، ٧٨، جماع العلم، للإمام الشافعي على هامش الأم ٢٥٠/٧.

(٣) أسباب النزول للسيوطي ص٢٩٩- ٣٠٠ تحقيق الدكتور بديع السيد اللحام، تفسير ابن كثير ٤٨٩/٣، طبع عيسى الحلبي، بلا. ت، محاسن التأويل، للقاسمي ٤٨٦٠/١٣، التفسير المنير ٢٦/٢٢.

(٤) الإحكام لابن حزم ٩١/١.

أرسلوا إليها، فقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ [النساء/ ٦٤]، ونص على ذلك في شأن كل رسول خاصة، فقال تعالى: ﴿ إني رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون ﴾ [الشعراء/ ١٠٨]، ومحمد ﷺ رسول أمين، وهو أحد الرسل الذين يجب طاعتهم.

١٣- خاطب القرآن الكريم الأمة واعظاً ومرشداً **بأنه جعل لهم رسول الله أسوة وقدوة** لمن يبتغي تطبيق شرعه، ويطمع في رضوان الله، فقال تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ [الأحزاب/ ٢١]، والقدوة يجب اتباعها، والأسوة يجب السير على هداها، وخاصة إذا كانت نبياً مصطفى، ورسولاً مجتبىً، ومن أولي العزم، وأفضل خلق الله تعالى.

هذه النصوص القرآنية —وغيرها كثير- برهان ودليل قاطع على حجية السنة، واعتبارها مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، وأن الأحكام الواردة في السنة الصحيحة تشريع إلهي واجب الاتباع.(١)

ثانياً : إجماع الصحابة :

أجمع صحابة رسول الله ﷺ في حياته، وبعد وفاته على **وجوب اتباع سنته والعمل بها والالتزام بما ورد فيها من أحكام، وتنفيذ ما فيها من أوامر، والانتهاء عما فيها من نواه.**

وكان الصحابة رضوان الله عليهم لا يفرقون بين الأحكام المنزلة في القرآن الكريم والأحكام الصادرة عن رسول الله ﷺ، ولذلك قال معاذ رضي الله عنه: " إن لم أجد في كتاب الله قضيت بسنة رسول الله ﷺ "(٢)، بل كان الصحابة رضوان الله عليهم يتوقفون في مفهوم كتاب الله حتى

---

(١) علم أصول الفقه، خلاف ص٣٩، وقد توسعنا بالاستدلال بنصوص القرآن الكريم ليكون بين يدي المسلم، وغير المسلم، مجموعة من المعاني الواضحة القاطعة للرد على الشبهة التي يثيرها بعض الملحدين والحاقدين في دعوى ترك السنة والاكتفاء بالقرآن الكريم والاحتكام إليه فقط، ويكفي في الاستدلال وإقامة الحجة دليل واحد، أو آية واحدة، ولكن أردنا أن يزداد المؤمن إيماناً، ويستيقن الذين أوتو الكتاب والمؤمنون، أما الجاحد المنكر فهو مجرد معاند، ولن ينفعه شيء حتى لو رأى الحق بأم عينيه.

(٢) هذا الحديث أخرجه أبو داود (١٧٢/٢)، والترمذي (٥٥٧/٤)، وأحمد (٢٤٢/٥، ٢٣٦، ٢٣٠) والدارمي (٦٠/١)، والبيهقي (١١٤/١)، وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٦٩/٢)، طبقات ابن سعد (٢٤٧/٢)، جامع الأصول (٥٥١/١٠)، أعلام الموقعين (٢٢١/١)، أخبار القضاة لوكيع (٩٨/١)، التلخيص الحبير (١٨٢/٤).

يسألوا رسول الله ﷺ عن مراد الله، وبيان مجمل القرآن الكريم، وتوضيح معناه، وتخصيص عامه، وتقييد مطلقه، وتأكيد أوامره، والأمثلة كثيرة في حياته، وبعد وفاته، وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وابن عباس وابن مسعود وزيداً ومعاذاً وغيرهم من الصحابة، كانوا إذا أعوزهم أمر، أو نزل بهم حادث، أو وقعت بينهم قضية، أو تعرضوا لقضاء أو فتوى، بحثوا عن الحكم في القرآن الكريم، فإن لم يجدوا فيه، بحثوا عن ذلك في السنة، ويمموا وجوههم للبحث عن الحديث، وسأل بعضهم بعضاً عمن يحفظ عن رسول ﷺ في ذلك شيئاً، وقد تعددت الأحوال[1]، ولم يستنكر واحد منهم ذلك، وسار على هذا المنوال التابعون، وأجمع عليه العلماء من بعدهم حتى يومنا هذا.[2]

فدلّ عمل الصحابة وإجماعهم، وإجماع التابعين، وإجماع علماء الأمة، على أن **السنة حجة كاملة**، ومصدر تشريعي واجب الاتباع متى صح نقلها عن رسول الله ﷺ.

ثالثاً : المعقول :

ثبتت حجية السنة عقلاً من عدة وجوه، أهمها:

١. إن القرآن الكريم فرض على الناس **فرائض مجملة** كالصلاة، وشرع لهم **أحكاماً عامة** كالشورى، وأخبرهم عن **واجبات كثيرة** كبر الوالدين وطاعة أولي الأمر، ولم يبين القرآن الكريم تفصيل هذه الفرائض والأحكام والواجبات، ويستحيل عقلاً استنباط ذلك وكيفيته إذا أراد المكلف المخاطب بالقرآن الكريم أن يؤدي هذه الفرائض، وينفذ تلك الأحكام، ويرضي ربه بالواجبات، كقوله تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾، وغير ذلك كثير وكثير، فجاء رسول الله ﷺ فبين هذا الإجمال بالسنة القولية والعملية، لما منحه الله تعالى من سلطة البيان الذي هو تكليف إلهي له، فقال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [النحل/ ٤٤]، فيوجب العقل المجرد الرجوع للسنة

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ القضاء في الإسلام، بحث مصادر القضاء ص١١٧ وما بعدها، طبع دار الفكر – دمشق – ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، السباعي ص٤١٢.

(٢) انظر: إرشاد الفحول، للشوكاني ص٣٦.

والاحتجاج بها، وإلا جمد، ووقف حائراً مرتبكاً أمام تطبيق القرآن الكريم.

٢. كان رسول الله ﷺ **ترجمة عملية للقرآن الكريم**، وكانت أعماله وأفعاله صورة حية للأحكام الواردة في كتاب الله تعالى، وكانت أوصافه وأخلاقه تنفيذاً واقعياً لأوامر الله تعالى، وقد سئلت السيدة عائشة –رضي الله عنها– عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: " **وكان خُلُقه القرآن** "[١]، وكان رسول الله ﷺ يتمثل كلام ربه، ويلتزم رضاه، ويسير على الصراط المستقيم، بل كان أول من ينفذ أحكامه، وخير من يطبق كتابه، فكانت سنته وسيرته تطبيقاً عملياً لأحكام القرآن الكريم، وبياناً واقعياً للناس عن صورة الإسلام الصحيحة الكاملة.[٢]

فلا جرم أن تكون أقواله وأفعاله وكل ما يصدر عنه موافقاً لحكم الله تعالى، وأن تكون بالنسبة للمسلمين مصدراً رئيسياً لمعرفة الأحكام الشرعية نصاً واجتهاداً واستنباطاً واستدلالاً، وهذا ما يقتضيه العقل السليم، والفكر القويم.

٣. إن وظيفة رسول الله ﷺ أن **يبلغ للناس** كتاب الله تعالى، ثم **يبينه لهم** فبلغ القرآن الكريم بنصه وحرفه، ونقله عن جبريل إلى أمته، أما البيان فهو بالأقوال والأفعال التي صدرت عن رسول الله، وهي السنة، وقد ثبتت عصمة الرسول ﷺ في الأمرين معاً، وتكفل الله تعالى أن **يحفظ الذكر**، والقرآن الكريم لا يحفظ حقيقة إلا بحفظ بيانه، وهو السنة، فيوجب العقل أن تكون السنة حجة واجبة الاتباع والتطبيق، ودل ذلك على أن السنة بأقسامها الثلاثة (القولية والفعلية والتقريرية) واجبة الاتباع متى صح صدورها عن رسول الله ﷺ، وأنها حكم شرعي واجب التنفيذ، ومصدر تشريعي للأمة في استنباط الأحكام.[٣]

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى: " وقول رسول الله ﷺ **حجة لدلالة المعجزة على صدقه**، ولأمر الله تعالى إيّانا باتباعه، ولأنه لا ينطق عن الهوى ".[٤]

وإن القرآن الكريم والشريعة جاءتنا عن طريق رسول الله ﷺ، وهو **المبلّغ** عن ربه، وهو **المبيّن** لكتاب الله، وهو **المكلف الأول** عن التطبيق والتنفيذ، فكان لزاماً على المسلمين اتباع

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم (٦/٢٦)، وأبو داود (٢/٤٠٠)، وأحمد (٦/١٨٨) عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) انظر: فقه السيرة، للشيخ الداعية محمد الغزالي ص٣٦.
(٣) قال اسحاق بن راهويه رحمه الله تعالى: " من بلغه عن رسول الله ﷺ خبر يقر بصحته ثم ردّه بغير تقية (اجتهاد) فهو كافر " وأيد ابن حزم رحمه الله تعالى كلام إسحاق في الكفر، انظر: الإحكام، ابن حزم ١/٨٩.
(٤) المستصفى، له ١/١٢٩.

أوامره، ونواهيه وسائر سنته وبيانه وتطبيقه بموجب العقل.

فرع أول : حجية السنة من السنة :

بعد أن ثبتت حجية السنة بنصوص القرآن الكريم، وإجماع الصحابة، وإجماع المسلمين، والمعقول، نورد بعض الأدلة من السنة للاستئناس على حجيتها والاعتماد عليها[1]، وأن رسول الله ﷺ أكد هذه الحجية بأقواله وأفعاله وأحاديثه وسنته، فقال عليه الصلاة والسلام: " تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي " [2]، وقال ﷺ: " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه "[3]، وهذا المثل هو السنة[4]، وقد أوتيها من الله تعالى الذي آتاه القرآن الكريم، وعندما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: " كيف تقضي إ ن عرض لك قضاء؟ " قال: أقضي بكتاب الله، قال: " فإن لم يكن في كتاب الله ؟ " قال: فبسنة رسول الله، قال: " فإن لم يكن بسنة رسول الله ؟ " قال : أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ على صدره، وقال: " الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي الله ورسوله "[5])[6]

---

(١) هذه الأدلة لمجرد الاستئناس، وليست لإقامة الحجة، لأنه لا يصح أن نحتج على الشيء بنفسه، فنقول السنة حجة لما ثبت في السنة.

(٢) هذا الحديث رواه الحاكم في المستدرك ٢١٨/١.

(٣) هذا الحديث رواه أبو داود (٥٠٥/٣)، وأحمد (٣٣١/٤)، والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه، وانظر: معالم السنن للخطابي ٧/٧.

(٤) روى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك، تفسير القرطبي ٣٩/١.

(٥) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي وأحمد والدارمي والبيهقي، وسبق بيانه.

(٦) جميع هذا المبحث من بحث حجية السنة لمحمد الزحيلي